(ابن عساكر)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبار العلماء العاملين والحكماء الصالحين والمجاهدين المتقين تغرس الفضائل في النفوس، وتدفعها إلى تحمل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتقترب بها من عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكايات جند من جنود الله تعالى يثبت بها قلوب أوليائه.

وقال الإمام أبو حنيفة: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه لأنها آداب القوم وأخلاقهم.

وقال الإمام الجنيد: الحكايات جند من جنود الله يقوي بها إيمان المريدين، فقيل له: هل لذلك من دليل، قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [يوسف:120].

نحن في الخطبة الثالثة من سلسلة: **"أعلام من الشام"**، التي أحدثكم في كل خطبة منها عن واحد من أعلام هذا البلد التقي المرابط المبارك الكريم الصابر، عن عَلَم وُلِد هنا أو مرَّ من هنا فعاش حقبة من الزمن أوتوفاه الله في هذه البلدة، والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

كنت قد تحدثت إليكم عن السلطان الشهيد نور الدين زنكي وعن السيدة ست الشام وحديث اليوم عن:

(مؤرخ دمشق ومحدثها الإمام الحافظ ابن عساكر)

ابن عساكر هو علي بن الحسن بن هبة الله الملقب بابن عساكر، ولد سنة تسع وتسعين وأربعمائة لأسرة علمية دينية، فوالدته من أسرة معروفة بالفقه والعلم، وجده لأمه هو قاضي دمشق المعروف بابن الصابغ، وخالاه قاضيان مشهوران، ووالده فقيه محدث، هذا الأصل أنبت فرعاً عبقاً ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:58]، وهاهنا فائدة لكل شاب ماض نحو الزواج ولكل فتاة يقرع بابها الخاطبون: أن يختار كل منهما من عُرف بالدين القويم والخلق المستقيم؛ لأن الفروع تطيب بالأصول.

رأت أمُّه في منامها لَمَّا حملت به قائلاً يقول: تلدين غلاماً يكون له شأن. ورأى أبوه رؤيا يقال له فيها: يولد لك ولد يحيي الله به السنة.

وولد ابن عساكر فاحتفى به أهله ورعوه حق رعايته فكان أن أدبه والداه على حب القرآن والسنة، وعلَّماه حب العلم والعلماء، فدرج الغلام في حلقات العلم في دمشق ثم سمت هِمته للسفر إلى بغداد للنهل من معين علمائها، فاستأذن والدته فأذنت، فمضى الشاب حثيثاً في الطلب يجتهد في حفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم متناً وإسناداً حتى قال عنه أساتذته: قدم علينا ابن عساكر، فلم نر مثله، وما كان ببغداد إلا شُعلة نار مِن توقُّده وذكائه وحسن إدراكه.

ومن عجيب أمره في الطلب ما حدّث به مدرس النظامية قال: حكى لنا الفراوي قال: قدم علينا ابن عساكر، فقرأ علي في ثلاثة أيام فأكثر، فأضجرني، وآليت أن أغلق بابي وأمتنع، جرى هذا الخاطر لي بالليل، فقدم من الغد شخص، فقال: أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم

إليك، رأيته في النوم، فقال: امض إلى الفراوي، وقل له: إن قدم بلدكم رجل من أهل الشام أسمر يطلب حديثي، فلا يأخذك منه ضجر ولا ملل.

قال: فما كان الفراوي يقوم حتى يقوم الحافظ ابن عساكر أولاً.

عاد ابن عساكر إلى دمشق فمكث سنوات ثم أنشأ رحلة ثانية إلى المشرق: أصبهان وخراسان ونيسابور (إيران وماوراءها)، عاد بعدها سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وقد أصبح محدثاً حافظاً من أعيان فقهاء الشافعية وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. وقد حصّل علمه من أساتذة كُثر، ذكروا أن عدد شيوخه زاد على الألف وثلاث مئة شيخ، بالإضافة إلى بضع وثمانين امرأة عالمة تتلمذ عليهنَّ.

وهاهنا فائدة ثانية لرجالنا ونسائنا، فقد قال المربون: من لم تكن له بداية محرقة لم يكن له نهاية مشرقة، وقالوا: ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر.

فلولا جِدّ ابن عساكر واجتهاده ولولا دأبه وثباته على طلب العلم والسعي له لما كان له ذِكْرٌ في التاريخ، ولطوى الزمن اسمه كما يطوي أسماء كثير من البشر، فمن رام منا –أيها الإخوة– أن يُبقي لنفسه ذِكْرَاً في الأرض والسماء فطريقه البذل والاجتهاد في العلم النافع والعمل الصالح مع الإخلاص لله تعالى.

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

ثم تجدون أنَّ ابن عساكر الإمام الحافظ تتلمذ لسيدات فاضلات وعالمات جليلات زِدنّ على الثمانين فالنساء في الإسلام شقائق الرجال يتفاضلون بالتقوى ويتمايزون بالعلم والعمل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:13]، فلا يَرْمِينَّ جاهل الإسلام بدعاوى امتهان المرأة وحجبها عن ساح الحياة، فما هؤلاء العالمات إلا متأسيات بزوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين.

عن مسروق قال: رأيت مشيخةً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكابر يسألون عائشة عن الفرائض.

وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة.

أيها الإخوة:

لما بلغ ابن عساكر هذه المنزلة في العلم باشر التأليف والتدريس فتصدر مجالس التحديث والإقراء تحت قبة النسر في الجامع الأموي وفي دار الحديث النورية، وبارك الله له في علمه ووقته فألف خلال حياته أكثر من مائة وخمسين مؤلَّفاً، وتتلمذ عليه خلق كثير، ومن أعجب ما ألف الحافظ ابن عساكر كتابه الموسوم بتاريخ مدينة دمشق، وهو أعظم ما أُلِّف في تواريخ المدن، ترجم فيه للأعيان والعلماء والمشاهير الذين سكنوا دمشق أو مروا بها أو دفنوا فيها من زمن الصحابة وحتى عصره مضمناً تراجمهم توثيقاً علمياً للحياة الشامية الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، رتبهم على حروف المعجم مقدماً من اسمه أحمد إكراماً لاسم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاء كتابه درة كتب تواريخ المدن مطبوعاً اليوم في ثمانين مجلدة ويقول النقاد لم تحظ مدينة في الإسلام بتاريخ لها يضاهي تاريخ دمشق هذا.

وتعالوا بنا -أيها الإخوة- نحضر درساً من دروس الحافظ ابن عساكر يقرأ فيه من كتابه تاريخ مدينة دمشق، يحدثنا عن فضائل الشام لتطمئن نفوساً شيئاً وليَهدأ روعنا مما نرى ونسمع من أنباء في هذه الشدة التي تمر بها البلد، راجين الله تعالى أن يسرع لنا بالفرج محفوفاً بألطافه الخفية ونحن ماضون في معونة خلقه وقضاء حاجاتهم.

تعالوا نتحلق حول الإمام الحافظ ابن عساكر في المسجد الأموي قرب مقام سيدنا يحيى عليه السلام ونسمع منه، يقول الشيخ:

- سميت الشام بسام بن نوح وسام اسمه بالسريانية شام، وعن أبي إدريس الخولاني عن أبي حوالة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**ستجندون أجناداً؛ جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن**))، قال: فقمتُ فقلتُ: خِرْ لي يا رسول الله، قال: ((**عليك بالشام، فمن أبى فليحلق بيمنه وليَسْتَقِ من غدره، فإن الله تبارك وتعالى قد تكفل لي بالشام وأهله**)). وكان أبو إدريس إذا حدّث بهذا الحديث يقول: ومن تكفل الله به فلا ضَيعة عليه.
- عن مكحول الدمشقي عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**يُجند الناس أجناداً، فجنداً بالشام، وجنداً باليمن، وجنداً بالعراق، وجنداً بالمشرق، وجنداً**

بالمغرب)). فقلت: يا رسول الله، إني رجل حدثُ السنِّ، فإن أدركت ذلك الزمان فأيُّها تأمرني يا رسول الله؟ قال: **((عليكم بالشام، فإنها صفوة الله تعالى في أرضه، يسوق إليها صفوته من خلقه، فإن أبيتُم فعليكم باليمن، فاستقوا بغدره، وقد تكفل الله تعالى لي بالشام وأهله))**.

- عن أبي الضحّاك قال: أتيت ابن عمر رضي الله عنهما فسألته: أين أنزل؟ فقال: (إن الناصية الأولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ساروا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا الشام، ثم نزلوا حمص خاصَّةً، فانظر ما كانوا عليه فأتِه).
- عن عبد الرحمن الجُمَحِيّ قال: قلتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: إن لي رحماً وقرابةً، وإن منزلي قد نبا بي بالعراق والحجاز، فخِرْ لي، فقال: أَرضى لك ما أرضى لنفسي ولولدي، عليك بدمشق، ثم عليك بمدينة الأسباط بانياس، فإنها مباركة السهل والجبل.
- عن عبد الله بن حوالة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((رأيت ليلةَ أُسرِيَ بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة، فقلت: ما تحملون؟ فقالوا: عمود الإسلام، أُمِرنا أن نضعه بالشام. وبينا أنا نائم رأيت عمود الكتاب اختُلِس من تحت وسادتي، فظننت أن الله قد تخلّى من أهل الأرض، فأتبعتُه بصري، وإذا هو نور ساطع بين يديَّ حتى وضع بالشام))**. فقال ابن حوالة: يا رسول الله، خِرْ لي، فقال: **((عليك بالشام))**.
- عن كعب رضي الله عنه أنه كان يقول: (يا أهل الشام، إن الناس يُريدون أن يَضَعوكم، والله يرفعكم، وإن الله يتعاهدكم كما يتعاهد الرجل نُبلَه في كنانته؛ لأنها أحبُّ أرضه إليه، يسكنها أحبُّ خلقه إليه، مَن دَخَلَها مرحوم، ومن خَرَج منها فهو مغبون).
- عن ثابت بن معبد قال: قال الله: **((يا شام، أنت خيرتي من بلادي، أُسكِنك خيرتي من عبادي))**.
- عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلِّف القرآن في الرقاع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((طوبى للشام))**، فقلنا: لأي ذلك؟ قال: **((إن ملائكة الرحمن –وفي رواية: ملائكة الرحمة– باسطة أجنحتها عليها))**.
- وفي حديث آخر عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن عنده: **((طوبى للشام))**، فقلنا: ما بَالُهَ يا رسول الله؟ قال: **((إن الرحمن لباسط رحمته عليه))**.

- وعن واثلة بن الأسقع قال: (إن الملائكة تغشى مدينتكم هذه -يعني دمشق- ليلة الجمعة، يدعون الله لهم: اللهم اشفِ مريضهم، ورُدّ غائبهم).
- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا**)).
- وعن عوف بن مالك قال: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**ستُفتَح عليكم الشام، فإذا خُيِّرتم المنازل منها، فعليكم بمدينة يقال لها دمشق، فإنها معقل المسلمين من الملاحم وفسطاطهم منها بأرض يقال لها: الغوطة**)).
- عن عمرو بن جابر الحضرمي قال: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه يقول: (من سكن دمشق نجا).
- عن كعب رضي الله عنه قال: (معقل المسلمين من الملاحم دمشق).
- عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر نحو الشام فقال: ((**اللهم أقبل بقلوبهم**))، وفي رواية: ((**اللهم أقبل بقلوبهم إلى طاعتك، وأحِط مَن ورائهم**)).

وأختم درس الحافظ ابن عساكر بما رواه في أنَّ أهل الشام مُرابطون وأنهم جند الله الغالبون:

- عن خريم بن فاتك الأسدي رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((**أهل الشام سوط الله تبارك وتعالى في أرضه، ينتقم بهم ممن يشاء من عباده، حرام على منافقيهم أن يظهروا على مؤمنيهم**)).
- وعن كعب رضي الله عنه قال: (أهلُ الشام سيف من سيوف الله، ينتقم الله بهم ممَّن عصاه في أرضه).
- وعن عون بن عبد الله بن عتبة قال: قرأت فيما أنزل الله عز وجل على بعض الأنبياء أن الله يقول: (أهل الشام كنانتي، فإذا غضبت على قوم رميتهم منها بسهم).
- عن معاوية بن قمرة عن أبيه رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**إذا هَلَكَ أهل الشام فلا خير في أمتي، ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتلوا الدجال**)). وفي رواية عنه: ((**إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم**)).

أيها الإخوة:

نقل الذهبي في ترجمته لابن عساكر أنه كان مواظباً على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن، يختم كل جمعة، ويعتكف في رمضان في المنارة الشرقية، وكان كثير النوافل والأذكار، يحيي ليلة

النصف والعيدين بالصلاة والتسبيح، ويحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة، وقد أخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

توفي في رجب سنة إحدى وسبعين وخمس مئة ليلة الاثنين وصلى عليه القطب النيسابوري وحضره السلطان صلاح الدين، ودفن عند أبيه بمقبرة باب الصغير.

والحمد لله رب العالمين